الفصل الثالث

الصورة الممتدة

لم تقتصر الصورة في الجمهرة على الألوان البيانية والصور الجزئية التي تعتمد في قوامها على محور واحد ،وتشكل جانبًا جزئيا تسلط عليه الضوء،ولكنها تعدت هذه النمط الجزئي ،وتشكلت في صورة ممتدة ظهرت فيها الصورة بتفصيلاتها المتعددة ،وكونت من مجموع هذه التفصيلات صورا ممتدة من أبرزها ما يلي :

أولاً: الصورة الشعاعية : (١)

هي نمط من أنماط الصور الممتدة لا يكتفي فيها الشاعر بوصف جزئي للشيء الذى يتناوله وإنما ينطلق من ذلك إلى أوصاف متعددة تجعل الموصوف بؤرة لها وكأنها شعاع ينطلق من مصدر ضوء وينتشر في آفاق متعددة محتفظًا بأصله الواحد الموصوف ،وهذا ما يسميه بعض البلاغيين بالتشبيه المتعدد ، " والفارق بين الصورة الشعاعية والتشبيه المتعدد أن الصورة الشعاعية لا تقتصر على التشبيه بل يكون فيها صفات حقيقية بدون

---

(١) ورد مسمى الصورة الشعاعية بهذا التوصيف في رسالة ماجستير للباحث سامي حماد الهمص : بعنوان شعر بشر بن أبى خازم "دراسة أسلوبية" ــ كلية الآداب ــ جامعة الأزهر بغزة ــ قسم الأدب والنقد (١٤٢٨هـ ــ ٢٠٠٧م) إشراف أ.د / محمد ذكي أبو حميدة ــ ص١١٨

تشبيه أما التشبيه المتعدد فيعتمد على كثرة التشبيهات وتعـدد وجـه الشبه فيها " (١)

والمتأمل لهذا النوع من الصور في الجمهـرة يجـدها كثيرة وقد ارتبطت في غالبتها بصورتي : الناقة والمرأة لكنها تعدت أحيانا على استحياء لهاتين الصورتين وجاءت في لوحة الفرس ومن هذه الصورة قول الأعشى واصفاً ناقته : (٢)

فَاذْهَبِي مَـا إلَيْكِ أَدْرَكَنِي الحِلْـ

ـمُ عَدَانِي عَـنْ هَيجِكم أَشْغَالي

وَعَسِيرٍ أَدْمَـاءَ حَـادِرَةِ العَيْـ

ـنِ خَنُـوفٍ عَيْرَانَـةٍ شِـمْلَالِ

مِنْ سَرَاةِ الهِجَانِ صَلَّبَها العَـضُّ

وَرَعْيُ الحِمَى، وَطُـولُ الحِيالِ

---

(١) نفسه ص : ١١٨

(٢) الجمهرة ص : (٢٠٧ :٢١٢ / ١٧ :٢٧)، حادرة : أي حديـدة النظـر حسنته ، خنوف : نشيطة ،وهو الذى إذا حضر ثنى رأسـه ويـده فـي شـق ،الحوار : ولد الناقة إلى أن يفصل عن أمه عبيد : اسم رجل ملم بأدواء الإبـل الخمال : داء يصيب القوائم ، النكظ : الجهد والعجلة الميط الزجر ، الهجير : الوقت من الظهر إلى العصر ، الإرقال : ضرب من عـدو الإبـل ،الأمعـز : الصلب ،المكوكب : المتوقد من الحرّ، الوخد : السير بخطى واسعة ،الإيغـال : شدة السير.

لمْ تعَطَّفْ على حُوَارٍ، ولَمْ يَقْـــ
ـطَعْ عُبَيْدٌ عُـــــرُوقَها مِنْ خُمالِ
قد تَعَلَّلْتُها، على نَكـَظِ المَيْـــــ
ـــــطِ، وَقَـدْ خَـبَّ لامِعَاتُ الآلِ
فَـوْقَ دَيْـمُومَـةٍ تُخَيَّلُ لِلسَّفْـ
ـــــرِ قِفـــاراً إلاَّ مِـنَ الآجـالِ
وإذا ما الظِّلاَلُ خِيفَتْ وكان الْـ
ـوِرْدُ خِمْساً يَرجَوْنَهُ عـن ضلالِ
واستُحِثَّ المُغَيِّرُونَ من الرَّكْـــ
ـبِ، وكانَ النِّطافُ ما في الغَزالي
مَرَحَتْ حُرَّةً كَقَنَـــــــطْرَةِ الرّومـــ
ـــــيِّ، تَفْريْ الهَجِيرَ بِالإرْقَالِ
تَقَطَعُ الأَمْعَزَ المُكَـوْكِـبَ وَخْداً،
بِـنـــواجٍ سَـــــــرِيعَةِ الإيْـغـالِ
عَنْتَرِيسٌ، تَعْدو، إذا مَسّهَا السَّوْ
طُ، كَعَـدْوِ المُصَلْصِلِ الجَـوَّالِ

فالشاعر قدّم لنا صورة الناقة في صورة شعاعية مُعَـدّدًا صفاتها ،فهي محور الصورة ،وقد تعددت صـفاتها ذات الـدلالات الثرية التي تضفي كل منها صورًا متعددة الأبعـاد علـى الناقـة ، فالشاعر جمع لنا مجموعة من الصـفات المتشـعبة ذات الـدلالات

الإيحائية المكثفة ،وجعلها محورًا شعاعيًا لهذه الصفات ، فهي عسير أى : ناقة ركبت ،ولم تكن تركب ،ولم تحكم الرياضة ، فهي عنيفة قوية بيضاء بلون الفطرة والبراءة ،وتعلوها النصاعة ،وهي حديدة النظر قوية تبصر على أميال وأميال ، نشيطة في سيرها ،قوية تشبه العير ، سريعة في مشيتها ،وبعدما عَدّد الأعشى الأبعاد الجسمانية التي جعلت لناقته صورة جسمانية قوية بما ألحقه من صفات مميزة ؛ نجده يؤصل نسبها ؛ فجعلها من الإبل النجاب ،فهي كريمة النسب والحسب ،ويعود ليؤكد ــ مرة أخرى ــ على بُعْد القوة والصلابة ،وهذه الصلابة مكتسبة من عدة أمور أجملها في رعيها للحمى ،حمى الملوك والكلأ المحمي الذى لا يناله غالبًا إلا السادة والأشراف ،وزادها قوة إلى قوتها بتباعد فترات الحمل ،وإبعاد الفحول عنها ،فلم تحمل ولم يمتلئ ضرعها باللبن ،ولم يضنها شوق أو حنين إلى رضيع تركته خلفها في رحلتها الشاقة، ولم ينل المرض قوائمها ؛ فظلت معافة في قوائمها سليمة قوية؛ لتكمل سيرها في قوة ونشاط ،ويمكنني توضيح صورتها الشعاعية من خلال الرسم التالي :

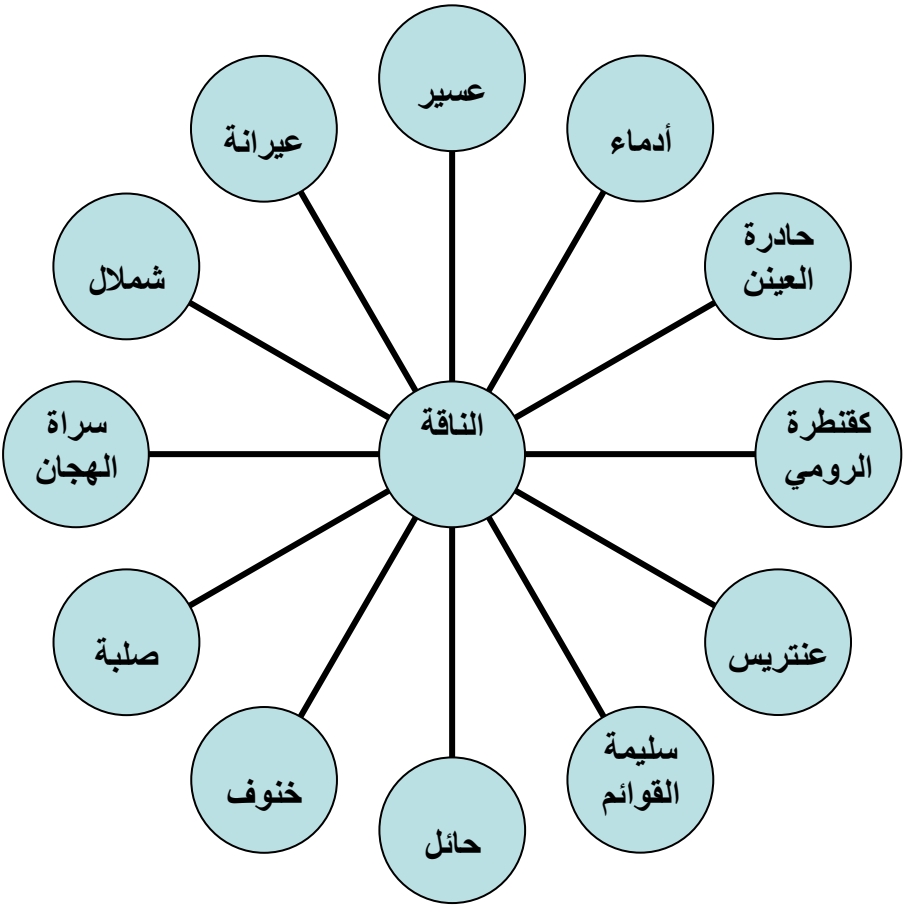
الناقة
عسير
أدماء
حادرة العينن
كقنطرة الرومي
عنتريس
سليمة القوائم
حائل
خنوف
صلبة
سراة الهجان
شملال
عيرانة

وهذه الصفات جميعها جعلت من الناقة بؤرة مركزية انطلقت منها صفاتها المتشعبة التي من شأنها أن تضفي صفات بطولية على هذه الناقة التي فاقت أقرانها قوة وصلابة .

وقريبا من الصورة السابقة نجدها عند عبيد بن الأبرص في قوله : (١)

فذاكَ عَصْرٌ، وقــد أراني تَحْمِلُني نَهْدَةٌ سُــرْحُــوبُ
مُضَبَّرٌ خَلْقُــها تَضبيراً، يَنْشَقُّ عَــنْ وَجْهِها السَّبيبُ
زَيْتِيّةٌ ناعــمٌ عُــرُوقُها وَلَيّنٌ أَسْــــرُهــا رَطِــيــبُ
كَــأَنّها لِقُــوَةٌ طَــلُوبُ تَــخِــرّ في وَكْرِها القُلُوبُ
بــاتَــتْ على إِرَمٍ عَذُوباً كَأَنّــهــا شَــيْخَةٌ رَقُــوبُ

فرسم الشاعر من خلال صورته الممتدة لوحة مكتملة شكّل فيها صورة ناقته مبيناً صفاتها التي تحدد أبعاد هذه الصــورة وملامحها من خلال استخدامه لصفات الناقة التي تنحــدر انحــدارًا شعاعيا متمحورة حول أصل واحد ؛ لينطلق من خلاله إلــى آفــاق وظلال متعددة ، فناقته **نَهْدة** بكل ما تحمله هذه الصفة من معــان

---

(١) الجمهرة ص : (٣٨٦ ، ٣٨٧ / ٣٣ : ٣٥) نهدة : عظيمة، سرحوب : سريعة ، مضبر : موثق ، السبسب : شعر الناصية ، أسرها : خلقها ، اللقوة : العقاب .

مشرقة تلقى ظلال المهابة على الناقة بما تفيده من عظمة في الصفات والفعال ،وهي سريعة تمثلت سرعتها الفائقة في قوله: (**سُرْحُوبُ**) ،وقد جسدت هذه السرعة من خلال الثلاث حركات التي اشتملتها هذه الكلمة، فالضمتان والواو يستتبعون ضم الفم إلى الأمام وإطالته طولاً جَسّد هذه السرعة المتتابعة من الناقة دون كلل أو ملل ،وتمادى الشاعر في استكمال لوحتها ؛ فجعلها زيتية كلون الزيت، سمينة ناعمة ليست بناتئة العروق غليظة ؛ فهي ناعمة لينة ليست بذات خشونة أو فظاظة مسترسلاً في بيان صفاتها بتتابع عنقودي رسم فيه لوحتها كما يمثله الرسم التوضيحي التالي :

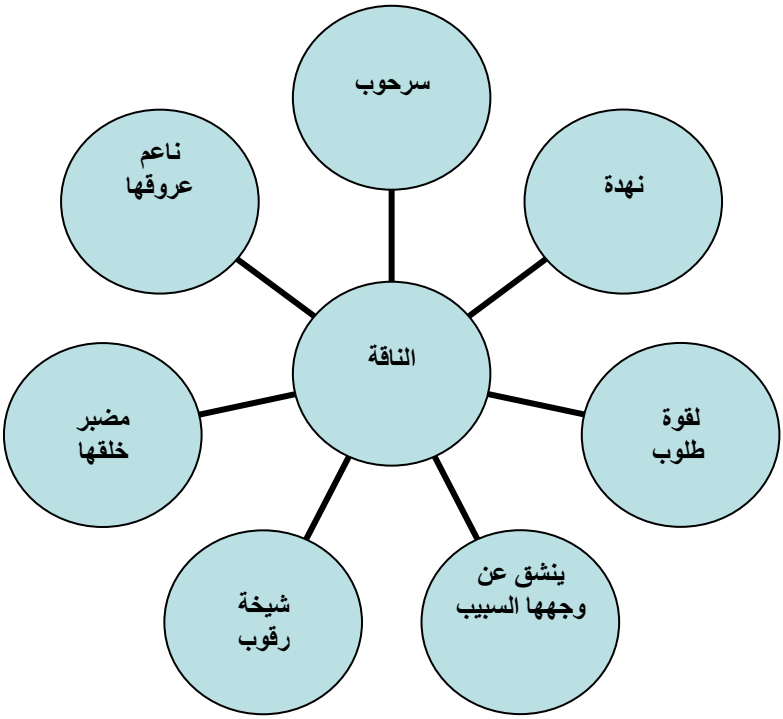

وتتضح هذه الصورة في صورة المرأة لدى بشر بن أبى خازم في قوله : (١)

دارٌ لِبَيضَاءِ العَوَارِضِ طَفْلَةٍ مَهْضُومَةِ الكَشْحَينِ رَيّا المِعْصَمِ

---

(١) الجمهرة ص : (٣٩٩ /٣) ، العوارض : ما خلف الثنايا ودون الأضراس ، المهضومة : خمصاء البطن طفلة : رخصة لينة .

فرسم صورة محبوبته معددًا صفاتها موجزًا لها في بيت واحد جمع فيه صفاتها تاركًا كل صفة من صفاتها ؛ لتشكل لوحتها الجسدية اللامتناهية ، فهي بيضاء ما خلف الثنايا والأضراس ،وهذا يدل على عنايتها المستمرة بأسنانها ، وهي طفلة ناعمة رخصة لينة ممتلئة غير مسترسلة مكتنزة اللحم ،فهي معتدلة في امتلائها ويوضح الرسم التالي صورتها الشعاعية التي تحمل ما نعتها به الشاعر من صفات :

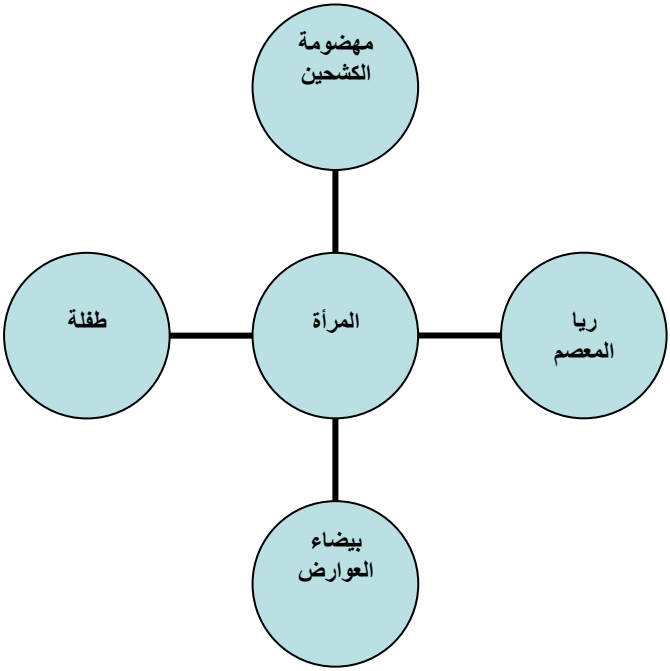

وأما ذو الرُّمة فرسم صورة شعاعية محبوبته أكثر اتساعًا من خلال قوله : (١)

دَارٌ لِمَـيّةَ إذْ مَـيٌّ تُسَـاعِـفُنَا،
ولا يَـرَى مِثْلَها عُـجْمٌ ولا عَـرَبُ
عَجْزَاءُ، مَكْورَةٌ، خُمْصَانةٌ، قَلِقٌ
منها الوِشَاحُ، وَتَمّ الجِسْمُ وَالقَصَبُ
زَينُ الثِّـيَاب، وَإنْ أَثْوَابُها اسْتُلِبَتْ
على الحَشيّةِ يَـوماً، زانَها السّلَبُ
بَرّاقَـةُ الجِيدِ، وَاللَّبّاتُ واضِحَـةٌ،
كَأَنّها ظَبْيَةٌ أَفْضَى بِـهَـا لَبَـبُ
بَيْنَ النهار وبينَ اللّيلِ من عَقَدٍ،
على جـوانِبِهِ الأسباطُ والهـدَبُ
لَمْيَاءُ في شَفَتَيْها حُـوّةٌ لَعَـسٌ،

---

(١) الجمهرة ص: (٧٤٧: ٧٥٠/ ١٠ :٢٢) ، تسافعنا : تساعدنا ،العجـزاء : الكبير العجز ،ممورة : مجدولة، الخُمصانة : الضامرة البطن، القصب : عظام اليدين والرجلين،اللبات : مفردها لبة وهي :موضع القلادة من الجيـد اللبـب : مسترق الرمل ،الأسباط : ضرب من الشجر ،الهدب :ما تهدب مـن أغصـان الشجر ،شنب : برودة ،الدعج : شدة سواد العين في بياضها ،البـرج : إحـداق بياض العين بالسواد كله،النعج : خلوص البياض ، سنة الوجه : دائرته ،غيـر مقرفة : أي عربية خالصة ،الندب : أثر الجرح، الذفري : ما خلـف الأذنـين سافت : شمّت ، العرنين : ما تقدّم من الأنف ، مارن : ما لان من الأنف .

وَفي اللِّثاتِ، وفي أنيابــها شَنَــبُ
كحْلاءُ في دَعَجٍ، صَفْراءُ في بَرَجٍ،
كَــأَنّها فِضّةٌ قــد شَابَها ذَهَــبُ
تُريكَ سُنّةَ وَجْــهٍ غَيرَ مُقرِفــــــةٍ،
مَلْساءَ لَيْسَ بها خــالٌ ولا نَدَبُ
تَزْدَادُ في العينِ إبهاجاً إذا سَفَرَتْ،
وَتَحْرَجُ العينُ فيها حِينَ تَنْتَــقِــــــــب
والقِرْطُ في حُــــرّةِ الذِّفــرَى مُعَلَّقَةٌ
تَبَاعَدَ الحبل فيه، فــهو يضْطَرِبُ
إذا أخــو لَــذّةِ الدّنْيا تَبَــــطّــنَــهَا
وَالبَيْتُ فَــوْقهما باللّيلِ مُحْتَجَبُ
ســافَتْ بطيّبَةِ العِــرْنِينِ مــارِنُهَا
بالمِسْكِ وَالعَنْبَرِ الهِنْدِيّ مُخْتَضَبُ
تِلْكَ الفتاةُ التي عُلّقْتُها عَــرَضــاً،
إنّ الكَــريمَ، وذا الإسلامِ يُخْتَلَبُ

فرسم لنا ذو الرمة صورة متعددة المسارات لمحبوبته ميَّة من خلال مجموعة من الصفات ذات الإيحاءات الظلالية المتعددة التي تلقى كل منها ملمحًا خاصًا ،وصفة مميزة عليها ،وتزيد في بيان صفة من صفاتها النفسية ،ومفاتنها الجسدية التي أبرزت لوحتها الشعرية، وأول هذه الصفات هي كونها ذات لسان فصيح لم يتطرق إليه العُجْمة ،ولم تعرف الزلات طريقها إليه

؛فتلاشت عن لسانها العجمة ،وبرئ لسانها من الزلل ،وبعد ما أكّد ذلك اتجه في مسار جديد ليشكّل من خلاله لوحتها الجسدية ،فهي برّاقة الجيد وما حوله من المواضع كالصدر ،وهي بجانب كونها بيضاء الصدر ،وبراقة الجيد لمياء في شفتيها سواد ليس بفاحش يزيدها جمالاً وبهاءً ،وفي أسنانها عذوبةً وملاسةً ،وعيناها شديدة السواد والبياض، ووجهها مستدير يحمل في استدارته ملامح الوجه العربي الأصيل خاليا من العيوب وآثار الجروح والحبوب التي قد تعكر صفوه ، مزينة بالحلى فيتلألأ القرط بارقًا في طرف أذنيها ،وينمُّ تباعد طرفي القرط عن عنق طويل ليس بفاحش ، وبعد ذلك انتقل الشاعر إلى تضاريسها الجسدية ؛فجعلها عظيمة العجز ، مجدولة ، ضامرة البطن ، متطيبة بالمسك والعنبر الهندي ذي الرائحة العطرة ،وهذه الصفات المتشعبة من شأنها أن تصنع لنا أنموذجًا أنثويًّا متفردًا ويمكنني بيان صورة المرأة التي اشتملتها الأبيات السابقة في الرسم التالي :

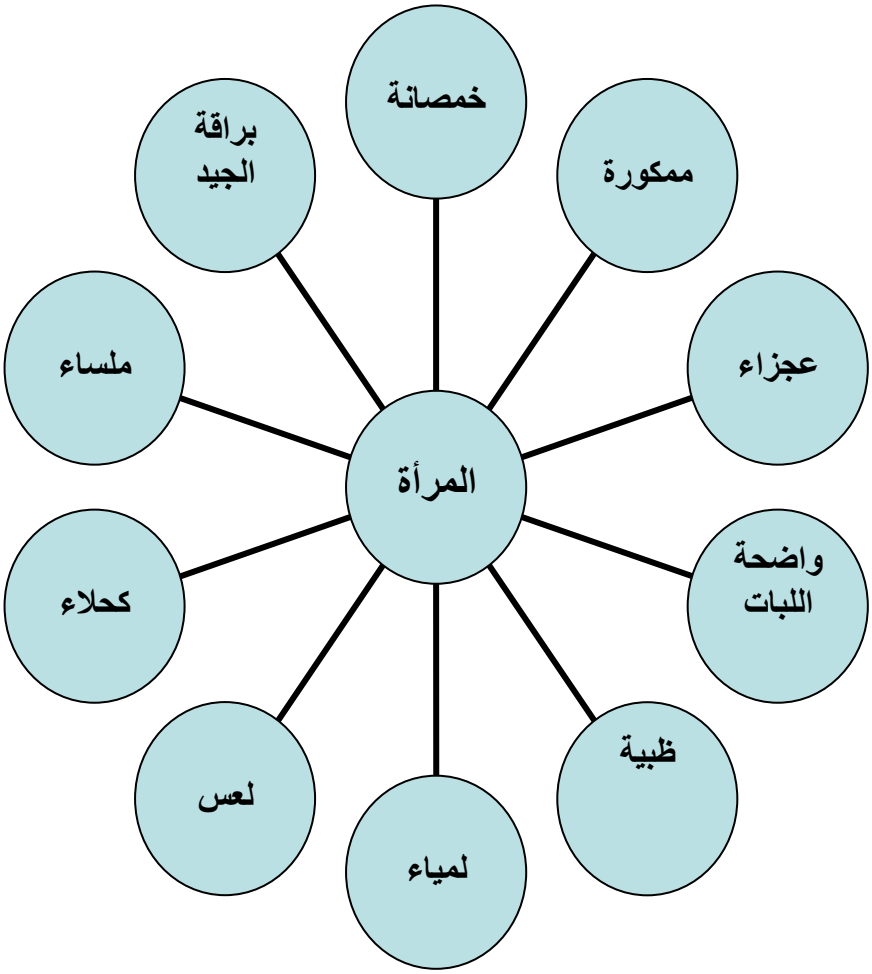
المرأة
خمصانة
ممكورة
عجزاء
واضحة اللبات
ظبية
لمياء
لعس
كحلاء
ملساء
براقة الجيد

ولم تقتصر الصورة الشعاعية على لوحة المرأة ،وإنما جاءت في وصف الخيل ؛ من ذلك قول دريد بن الصمة: (١)

وَغَارةٍ بـَيْـنَ اللْـيلِ فَـلْتَـة

تَدَاركْتُهَا رَكْضًا بِسْيدٍ عَمَرَّدِ

سَلِيم الشَّظَا عَبْل الشَّوَى شَنِج النَّسَا

طَوِيلِ القَرَا نَهْدَ أسيلِ المُقلَّدِ

يَفُوتُ طَـــــويلَ القَــوْمِ عَقْدُ عِـــذَارِهِ

مُنِيف كَجِذْعِ النَّخْلةِ المُتَجَرِّدِ

فهو يحيط فرسه بهالة من الصفات التي من شأنها أن تجعله متفردًا على نظائره ، فهو طويل الظهر كالذئب في عدوه وسرعته، سليم المتن ،غليظ القوائم طويل ناعم العنق موضع القلادة ، خالي من الأمراض ،جسيم مشرف ،وهذه جميعها أوصاف شعاعية محورها الفرس كما هو موضح بالرسم التالي :

---

(١) الجمهرة ص: (٤٣٦ ، ٤٣٧ / ٢٨ : ٣٠) ،السيد : الـذئب ، العمـرد : الطويل ، الشظا : المتن، الشَّوى : القوائم ،والنسا : عِرْق ، شنج : متقبض ، القرا : الظهر ،الأسيل : المستوى ، النسا : عِرْق مستظهر في الفخذين حتـى يصير إلى الحافر، النهد : الجسيم المشرف ،المقلد : موضع القـلادة ،الجسـيم المشرف .

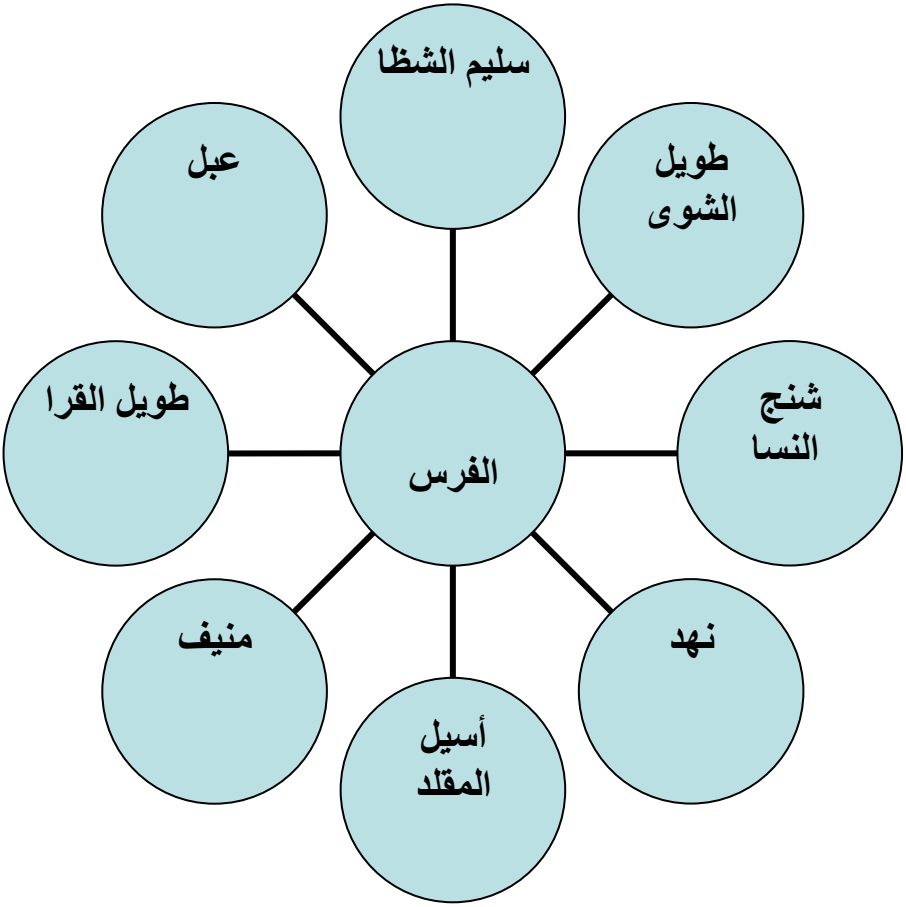
سليم الشظا
عبل
طويل الشوى
طويل القرا
الفرس
شنج النسا
منيف
نهد
أسيل المقلد

واستخدم دريد أيضا الصورة الشعاعية في تعـــداد فضـــائل مرثيـــه ،وذلك في قوله : (١)

فَإنْ يَـــكُ عَبْدُ اللَّهِ خَلّى مَـــكَـــانَهُ،
فَمَا كَـــانَ وَقّافاً، ولا طائِشَ اليَدِ
وَلا بَرَمًـــا إذا الرِّيـــاحُ تَنَاوحَـــتْ
بِرَطْـــبِ العِضَاه والصَّرِيع المُعضَّـــدِ
وَتَخَرجُ مِنه صِـــرَّةُ القُـــرِّ جُزْأةً
وطُـــوْلُ السُّـــرَى دُرِّىَّ عَضْبٍ مُهَنَـــــدِ
كَمِيشُ الإزَارِ، خَارِجٌ نِصْفُ سَاقَهُ،
صَـــبُـــورٌ عَلَى الضَّرَاءِ طَلاّعُ أَنْجُـــــدِ
رَئِيس حُـــروبٍ لا يَـــزالُ رَبِيـــــــئةً
مُشِيحًـــا عَلَى مُحْقَوْقِفِ الصلْب مُلْبِدِ
قَلِيلُ التّشَكّي للمُصِيبَاتِ، ذَاكِـــرٌ،
مِـــنَ اليَوْمِ، أَعْقَابَ الأحَادِيثِ في غَدِ
إِذَا هَبَطَ الأَرْضَ الفَضَاءَ تَـــزَيَّنَتْ
لِـــرُؤْيَتِـــهِ كَـــالمَـــأْتَـــمِ المُتَـــــبَـــــدِّدِ

---

(١) الجمهرة ص: (٤٧٠: ٤٧٢ / ٢١ :٢٧) ،الوقاف : المحجم عـــن القتـــال ،البرم : البخيل الذى لا يشترى اللحم ، تناوحت :صوتت ، المعضود : المقطوع ، صرة : شدة البرد ، كميش : قصير .

فشكّل الشاعر لوحة مرثيه ــ عبد الله ــ مــن خــلال صورة شعاعية محوره ا (عبد الله) وتنطلق منها أشعة حاملــة صفاته المتعددة التي ترسم جوانبها المختلفة صورته ،وبدأ الشــاعر تعداد صفاته بنفي الصفات السلبية عنه و هذا النفي يقتضى إثبات ما يقابله له ، وأول هذه الصفات هي نفي الجبن والطيش عنه ،وذلــك من خلال قوله : **(فَمَا كَانَ وَقّافاً، ولا طائِشَ اليَــدِ)** ،واســتعمل الشاعر صيغة المبالغة **(وقّاقًا)** ؛ لتفيد نفي الجبن عنه ــ دائمًــا ــ في شتى حالاته ، فهو دائما يخوض غمرات الحروب ،ويدلو بــدلوه فيها مقاتلاً مستأسدًا ،وليس طائش اليد بل يداه ثابتتــان ، مصــيب للعدو إذا رمى ،وبعد ما أكَّدَ على منحى الشجاعة والقوة ،والســداد تناول محورًا شعاعيًّا آخر متمثلاً في الكرم بوصفه من أهم أعمــدة الصفات النبيلة لدى العربي ، وتمادى في العطف ، فنفي كونه برمًا بخيلاً لا يشارك القوم في الميسر وضرب القداح عندما تلقــى الشتاء بظلالها المجدبة على البسيطة ،ويأتي صوتها المنذر بــالقحط وذهاب الخير والخصب.

وانتقل الشاعر من الصفات المنفية إلى الصفات المثبتــة ، فبدأ يعدد صفاته ، فجعله كميشَ الإزار ، فهــو قصــير الإزار ، صبور عند الشدائد ، ركَّاب لصعاب الأمور وما لا يقدر على إتيانها غيره ،ولهذا نعته في البيت التالى بكونه رئيس حروب ، فقد بلغ من الخبرة والحنكة ما أهّله للقيادة والخوض في الصعوبات الكبرى التي

تعلو فوق قدرة الآخرين ولا يقدر عليها إلا أمثاله ،ومع كل هـذا ؛ فإنه قليل الشكوى ، تتزين برؤيته الأرض ، ويتبدد عنها الشقاء .

هكذا حاول الشاعر أن يخلد صورة أخيه عبد الله مُعددًا صفاته من خلال محاور شعاعية بنى عليها صورته منطلقا بهـذه الأشعة التي بلورت لوحته في صورة فريدة جعلته أهـلاً للرثـاء والبكاء ،وسأوضح هذه المحاور من خلال الرسم التقريبـي التـالي لمحاور الصورة الشعاعية في صورة دريد بن الصمة :

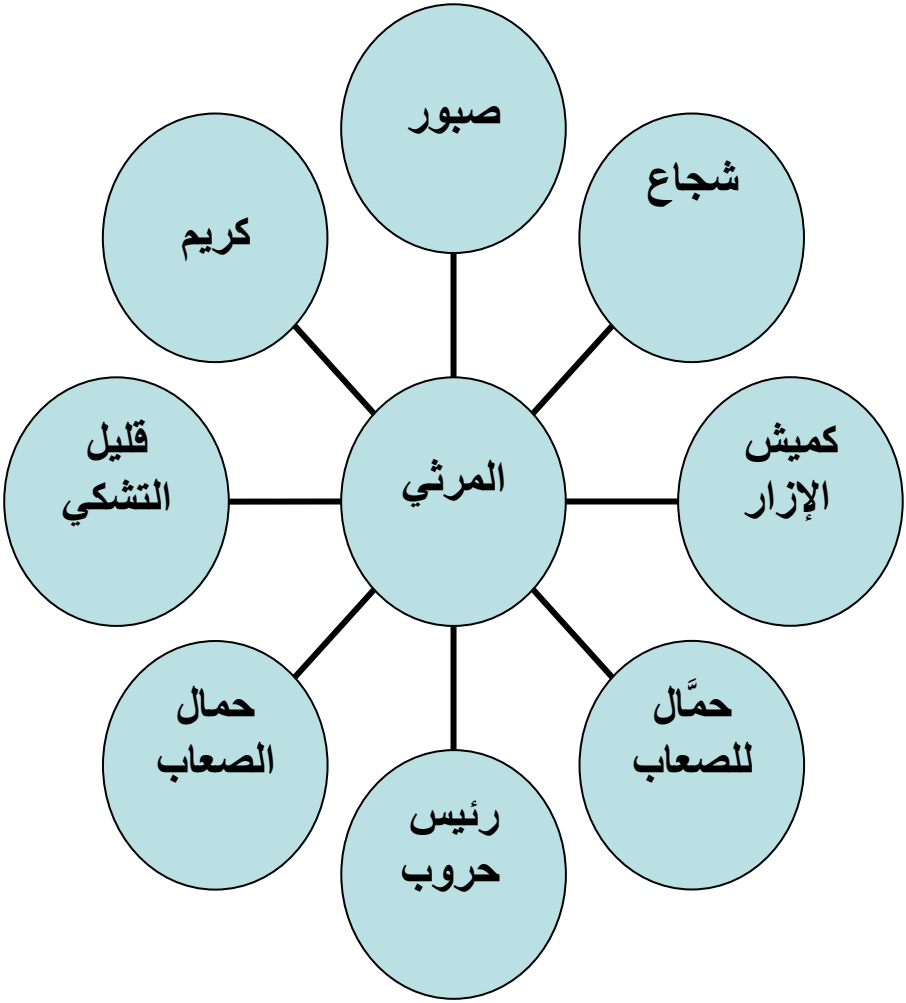
المرثي
صبور
شجاع
كريم
قليل التشكي
كميش الإزار
حمال الصعاب
رئيس حروب
حمَّال للصعاب

ثانيًا : التشبيه الممتد :

هو نوع من الصورة التي تقوم على التشبيه التفصيلي الذى يعقد من خلاله الشاعر مقارنة بين شيئين أو مجموعة أشياء وغالبًا ما يستفتح بحرف النفي (**مَا**) مستغلاً أسلوب التفضيل ؛ ليعقد علاقة ما صائغًا منه أسلوب تفضيل مطولاً تتبنى عليه الصورة ،وقد تعددت هذه التشبيهات الممتدة في الجمهرة ، فجاءت في أربعة مواضع تشبيهًا للناقة بثور الوحش وحمار الوحش والبقرة المسبوعة ، وأخرى في مدح الرسول وتفضيله على الأسد والأخيرة في الغزل (١)

وفيما يلي سأستعرض بعض هذه التشبيهات الممتدة مبينًا جمالياتها الفنية ،ومن ذلك قول الأعشى : (٢)

مَرِحَتْ حُرَّةً كَقَنْطَرَةِ الرّومِ

---

(١) من ذلك ما ورد بالجمهرة ص :(٢١١ : ٢١٥ /٢٥ :٣٢)، (٦٠٠ /٣٦ :٣٩)، (٤٣٨ ، ٤٣٩ /٨ : ١١)، ص :(٦٣٩، ٦٤٠ / ٤٥: ٥٠).

(٢) نفسه ص : (٢١١ : ٢١٥ /٢٥ :٣٢) ،الإرقال : ضرب من السير ، الأمعز : الغليظ من الأرض ، المكوكب : المتوقد من الحر ،نواج : قوائم ، الإيغال : من أوغل في السير إذا بالغ فيه ،عنتريس : صلبة قوية ، المصلل : حمار الوحش لكثرة نهيقه ،لاحه : أضمره ،، الصعدة : الإتان الضال : شجرة تتخذ منه القسى ، ملمع :استبان حملها في ضرها ؛ فأشرق باللبن ، فلاه : فطمه ،الصوة : الغليظ من الأرض ،الإدحال : حفرة ضيقة الأعلى واسعة الأسفل .

ـــيِّ، تَفْريْ الهَجـــيرَ بِالإِرْقَالِ

تَقَطَعُ الأَمْعَزَ المُكَوْكِبَ وَخْـداً،

بِـنـــواجٍ سَـرِيـــعَةِ الإِيْغَـالِ

عَنْتَرِيسٌ، تَعْدو، إذا مَسّها السَّـوْ

طُ، كَعَدْوِ المُصَلْصِلِ الجَوَّالِ

لاَحَـهُ الصَّيْفُ، والطِّرادُ، وإشْفـــــــا

قٌ عَلَى صَعْدَةٍ كَقَـوْسِ الضَّالِ

مُلْمِعٌ، والِـهُ الفُؤَادِ إلى جَحْـــــــــــ

ـشٍ فَلاهُ عَنْهَا، فَبِئْسَ الفَالي

ذو أَذَاةٍ على الخَلِيطِ، خَبِيثُ النّفـ

ـــــــسِ، يَرمـــي عَـدُوَّهُ بالنُّسالِ

غادَرَ الوَحشَ في الغُبَارِ، وعادا

هـــــا حَثِيثاً، لِصُـوّةِ الأَدْحـــــَالِ

ذَاكَ شَبّهْتُ نَاقَتي عن يَمينِ الرَّعـ

ـــنِ بَعْدَ الكَـلاَلِ والإِعْمَالِ

فالأعشى يعقد علاقة بين طرفي التشبيه ، فالمشبه (الناقة) ،والمشبه به متعدد ممتد ، فهذه الناقة كقنطرة الرومي في الضخامة ،وحمار الوحش في العدو ،وبعد ما شبهها الشاعر بحمار الـوحش انتقل إلى (المشبه به) (حمار الوحش) وتمادى في وصف حالتـه ،وسرد لنا معاناته ،والصعوبات التي كبلته بقيودها ، فقد تعرض ـ المشبه به ـ لجملة من الصـعوبات وهـي : الصـيف والطـراد

والإشفاق على إتان ناحلة مقوسة ،وكأنها في تقوسها ،ونحولها قوس من شجر الضال ،وقد ظهر حملها وشفها الحزن المؤلم على صغير لها أهزله وآذاه الفطام ، ومنعه عنها حمار قوي فظ غليظ يتمرغ في الأرض ؛ فتساقط منه النسال ،وقد أهزله الجري وراح يدفع إتانه إلى مورد الماء ،وبعد ما قدم لنا الشاعر هذا الاسترسال في قصة حمار الوحش (المشبه به) يعود ليبين لنا أن هذا الحمار الفظ القوي يشبه ناقته حين تجرى نشيطة بعد الكلال والتعب الذى ألمَّ بها .

وقريبًا من ذلك نجده في قول متمم بن نويرة : (١)

وَمَا وَجْدُ آظْآرٍ ثلاثٍ روائمٍ

رَأَيْنَ مَجَرّاً مِن حُوارٍ ومصرعَا

فَذَكّرْنَ ذا البَثّ الحَزِينِ بشَجْوِه،

إذا حنّتِ الأولى، سجَعْنَ لهَا مَعَا

إذا شَارِفٌ مِنْهُنّ حَنّتْ فَرَجّعَتْ

مِنَ الليل أبكَى شجْوُها البَرْكَ أجمعَا

بِأَوْجَد مِنّي، يَوْمَ فَارَقْتُ مالِكاً،

---

(١) الجمهرة ص : (٦٠٠ /٣٦ :٣٩) ،الأظآر : جمع ظئر ،وهي الناقة التي تعطف على غير وليدها ، الرائم :العاطف ،رأين مجرًا : أي مسبحا ، حوار : ولد الناقة ، البث : الحزن الشديد ، الشجو : الحزن نفسه الشارف : النقة المسنة ، البرك : الإبل الكثيرة .

وَقَــامَ بِهِ النّاعـــي الــرّفيعُ، فأسْمعا

فالشاعر هنا يبدأ أسلوب التشبيه المطول بـــ (ما) ،ليشـــبه النوق التي تعطف على غير وليدها ووجدهن على وليد الناقة الــذى صرعه الأسد بوجده مبيناً أنه أشدُّ منهن وجــدًا مــن خــلال هــذه الصورة التشبيهية الممتدة ، فقد بيَّنَ الشــاعر شــوق ثــلاث نــوق عاطفات على غير وليدهن عندما رأين ولد الناقة صريعًا أمــامهن ،فذكّرن في حزنهن وسجعهن على هذا المصروع ذا البث الحــزين فإذا حنّت إليه الناقة المسنة أبكت بصوتها وحنينها المفعــم بــالحزن جماعة الإبل ، وعلى الرغم من هذا الشوق والوجد الــذى انتــاب جماعة النوق ؛ فإنهن أقل وجدًا وشوقا من الشاعر لفقده أخيه.

ونجد المرقش الأصغر يعقد مشــابهة بــين الخمــر وفَــم محبوبته ينتهي بتفضيل فِيهَا على الخمر قائلاً : (١)

وَمَا قَهْوَةٌ صَهْبَاءُ، كَالمِسْكِ رِيحُها،

تُعَلُّ على النّاجُودِ طَوراً وَتُنزَحُ

ثَوَتْ في سَوَاءِ الدّنِّ عِشْرِينَ حِجّة

يُطانُ عَلَيْهَا قَرْمَدٌ، وَتُرَوَّحُ

---

(١) نفسه ص: (٤٣٨ ، ٤٣٩ /٨ : ١١) ، الناجود : أوعية الخمر ، تنزح : تقدح وتغرف ،تعل : تصب ،القرمد : حجارة وقيل :كل ما يطلى به مثل الحص والزعفران ،تروح : يتشقق طينها،سبها : شراها ،جيلان :موضع ،مربح : يربح من يشترى منه ، أنضح : أخلص وأطيب .

سَبَاهَا رِجَالٌ مُدْمِنُونَ، تَوَاعَدُوا

بِجيلانَ يُدنيها إلى السوق مُرْبِحُ

بِأَطْيَبَ من فيها إذا جِئْتُ طَارِقاً،

مِـنَ اللّيلِ، بل فُوها ألَذّ وَأَنْضَحُ

فالشاعر عقد تشبيهًا بين الخمر (المشبه) وفم محبوبته (المشبه به) ،واسترسل في بيان هذه الخمر فهي كالمسك رائحة وعطرًا وقد عتقت ؛فبقت في أسر الدن مطلية بالحصِّ والزعفران عشرين عامًا، وطليت بالطين ليكون أجود لها ،وقام بجمعها رجال مدمنون قادرون على التمييز بين أنواعها ،وهي بجيلان هذا الموضع المعروف بالخمور ،وبرغم هذه الأمور التي جمعها الشاعر للخمر والتي من شأنها أن تجعلها أكثر تميزًا فإنها ــ الخمر ــ إذا قيست بطعم فم محبوبته ؛ فإن فاها يفوقها لذةً ،ونضوحًا بالرائحة والطيب .

ويفضل كعب بن زهير الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ على الأسد في الجرأة والشجاعة والمهارة في صورة تفضيلية تشبيهية في قوله : (١)

وَلَهْوَ أهْيبُ عِنْدي إذ أُكلّمُه،

وَقِيلَ : إنّك مَنْسُوبٌ وَمَسْؤول

---

(١) الجمهرة ص :(٦٣٩، ٦٤٠ / ٤٥: ٥٠) ، الضراء الواحد ضار وهو المفترس ،مخدره : عرينه ، الغيل : الشجر الملتف ، معفور : أي معفر بالتراب ، الخراذيل : القِطع ،قرنا : الخصم .

من ضَيْغمٍ من ضِرَاءِ الأسُد مَخدَرُهُ
ببطنِ عثَّرَ، غِيلٌ دُونَــهُ غِــيــــلُ
يَغْدو، فَيَلحَــمُ ضِرْغامَيْنِ عيشهما
لَحْمٌ مِنَ القَوْمِ مَعفور، خَرَاذيل
إذا يُــســاورُ قِــــرْنــاً لا يَحِــلُّ لَــهُ
أن يترُكَ القِرْنَ إلاّ وَهُــوَ مَفلول
مِنْهُ تَظَلّ حَميرُ الوَحــشِ ضَــامِزَةً،
ولاَ تُمَشَّــى بِــواديــهِ الأراجِيــــل
وَلاَ يَــزَالُ بِوَادِيــهِ أَخــو ثِــقَــةٍ،
مُطرَّحُ اللحمِ، والدِّرْسانِ، مأكول

فعقد كعب أسلوبًا تشبيهيًا بين الرسول ــ صلى الله عليــه وسلم ــ (المشبه) ،والأسد (المشبه به) ليبين أنه ــ صــلى الله عليه وسلم ــ أكثر هيبةً منه ، ثم تمادى الشاعر مع المشبه بــه (الليث) ؛ فأسقط عليه جملة من الصفات التي أضفت عليه مزيدًا من القوة والشجاعة ،وأول هذه الصفات كونه مفترسًا ضــاريًا ،ويؤكــد هذه الصفة من خلال محورين : الأول : طبيعي منحته إياه الطبيعة من خلال اختياره لمسكنه ،فهو يسكن في بطن عثر ذلك الموضــع المشهور بالأسود (١) وبجانب ذلك فموقعه محصن من قبل الطبيعة

(١) عَثَّرُ : بفتح أوله وتشديد ثانيه وأخره راء مهملة ،قال أبو منصور : عَثَّرُ موضع قِبَل تبالة وهو مأسدة يعنى أنه كثير الأسد (معجم البلدان ٨٥/٤) .

،فيعيش في غابات ذات أشجار ملتفة متداخلة تليها أخرى مشـــابهة لها ومتداخلة معها ،وبالتالي فهو محمى مهاب ،أما المحور الثاني : فهو الشجاعة ،فبعد ما بيَّن الشاعر موضع عرينه بما يضفي عليـــه من مهابة وخوفٍ يزيد من هذه المنحى ،وتتجلى المهابة من خـــلال بطولات شجاعية أضفاها على هذا الأسد ، فهو إذ صارع خصمًا لم يتركه إلا مجدلاً منهزمًا مكسورًا ،وتظل حُمْرُ الـــوحش ســـاكنة إذا حلت قريبًا من واديه ،وعَمّقَ هذه الدلالة بتقديمه لمتعلقـــات الفعـــل (منه) الجار والمجرور المشتمل على الضمير العائد عليـــه علـــى الفعل وفاعله وحاله ؛ ليبين أهمية هذا المتقدم المتمثل في الضـــمير العائد علي الليث الذى استطاع بقدرته ومهابته جعل هـــذه الحمـــر ساكنة لا حِرَاك لها ،ويزداد بُعْد المهابة بأنه لا يجعل أحدًا ــ مهمـــا كانت قوته ــ قادرًا على أن يسير مرتجلاً في واديه أو قريبًا منـــه ،وإذا أقدم أحد مهما كان ذا ثقة وجرأة وشجاعة على السير ؛ فإنـــه لا يبرحه ماشيًا إلا وأصبح أشلاء ولم يبق منـــه إلا أثـــواب باليـــة مطرحة على الأرض ،ومع هذه القوة والشجاعة والمهابة التي نعته بها الشاعر ؛فإنه إذا قِيَسَ بممدوحه فإنه يقصـــر وتتضـــاءل همتـــه ،وتقل شجاعته ،ويبقى قاصرًا دونه .

ثالثًا : الصورة القصصية :

جاء التراث الشعري العربي حاملاً بين جنبتيه عناصر القص التي وردت لدى أقدم الشعراء ،وتفاوت لديهم قلة وكثرة، وتناثرت في موضوعات شتى متبلورة في أطر متعددة مستغلين ما يمتاز به القصُّ من سمات تجعله من أهم العناصر التي تساعد بوضوح في تحقيق عنصري الإثارة والتشويق التي تساهم في جذب الأسماع ،وفي سهوله نقل الشعر وروايته مدعمًا ثقافة الشفاهية التي شاعت قديمًا في الشعر العربي من ناحية ،ومكسبًا القصيدة الشعرية تماسكًا ووحدة بين نسيج القصيدة من ناحية أخرى، ويجعل ــ في الوقت ذاته ــ من هذه القصة " مرآة يعكس عليها صورة أمر غير موضوع القصة الأصلي "[١]

وقد لجأ شعراء الجمهرة إلى القصة بوصفها " نوعا من الصورة "[٢] لما لها من تأثير درامي باعتبارها فنًا أدبيًا يضفي على عمله نوعًا من التشويق ،والدرامية ،والإثارة ؛فأصبح العمل

---

(١) نجيب البهبيتي : تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ــ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠م ص: ٩٨ .

(٢) نفسه ص: ٩٨ .

الشعري أكثر إطرابًا وإمتاعًا لما تفتضيه القصة من تنوع في طريقة العرض والإثارة التي تحدثها أركانها المتمثلة في الشخوص ،والحوار ،والحدث بما يتضمنه من صراع متولد من حوار نامٍ متدفق يتناغم مع حدث شيق ،ويُحَاط شخوصها وأحداثها بزمان ومكان يتخذ ساحة لصراعات شتى تتابع أحداثها بدرامية منتجة عذوبة واتساقا يضفي طابع التشويق على عملهم الأدبي ،والقصة بوصفها فنًّا أدبيًّا ذا تركيبة خاصة يجعل صياغتها الشعرية أمرًا من الصعوبة بمكان لما يتطلب من الشاعر من أن يجمع في صورته بين جنسين أدبيين لكل منهما قوالبه الفنية ،وأركانه المحورية التي يبنى عليها .

وقد شكَّل شعراء الجمهرة جانبًا من صورهم بنمط قصصي ؛فظهرت الصورة القصصية بين ثنايا الجمهرة بصورتها النمطية الواضحة في صورة الناقة وتشبيهها بحمار الوحش ،وبقرة الوحش ،والظليم ،ولكنها لم تقتصر على ذلك بل تعددت القالب النمطي ؛فوجدنا صورًا قصصية جَسّد فيها الشعراء مغامراتهم الليلة ،وعبثهم مع محبوباتهم ،وقصصًا بطولية في ساحات المعارك من خلال مشاهد صورية اتخذت من القصة محورًا لها جاءت فيما يقرب من (٢٧) قصة لدى اثنى عشر شاعرًا تقريبًا تبلورت فيما يقرب من (٤٧٥) بيتًا تقريبًا .

وقد حفلت الجمهرة بقصص نمطية متعددة اطَّردت بشكل أساسي فيها ،وميزت بنيتها السردية وجاءت أركانها متقاربة في هيكلها

العام ،وبقى التغيير محصورًا في أمور شكلية بسيطة لا تنحو بها نحوًا بعيدًا عن البناء المألوف الذى يجسد حركة الحياة وصراعها متمثلة في صراعات هذا الأنموذج الحيواني الذى يقاتل ويدخل في صراعات دموية لا متناهية مع معوقات الطبيعة التي تحيط به من كل مكان ،أو أخرى بشرية تلقى شباكها عليه ،وتطوقه بكلابها ،وشباكها ،وحرابها ،ولكنها في النهاية تنتصر أحياناً ،وتسقط أحايين مضرجة بدمائها لا حول لها ولا قوة .

والمطلع ــ على الشعر الجاهلي بصفة عامة والجمهرة بصفة خاصة ــ يجد هذه القصص النمطية تدور جميعها في وصف شكلي تفصيلي جسماني يتقدم السرد ثور الوحش المتصف بالوحدة والانفراد يضاف لذلك البُعْد النفسي المتجسد في الخوف ،والقلق ،والترقب وغالبًا ما تحيطه معوقات الطبيعة من بَرْدٍ شديد ،ومطر غزير ينهال على جسده ،وظلام الليل يحيطه من كل جانب ؛ فيحتمى بشجرة الأرطي حتى يفاجأ غالبًا بنور الصباح الذى كان يحلم به لعله يحمل بين أسنته المضيئة الأمل والبشارة ،لكنه لم يكن كذلك فسرعان ما انّهال عليه كلاب الصيد محيطين له من كل جانب ،ودخل في صراع دموي من أجل البقاء مُلَخِّصًا النتيجة في سقوط الثور مطّرحًا مخضبًا بدمائه أحياناً ،ومنتصرًا في أحايين أخرى .

وقد أخذ السرد في الجمهرة منحى عامًا وآخر خاصًا ،فالعام منهج شمولي أما الخاص فهو قليل نسبى متفاوت بين

الشعراء في تفاصيل عرضية ،وكلاهما شكّل البناء الصياغي للقصة من خلال السرد بما فيه من ملامح قصصية منها :

(١) الشخوص (٢) المكان (٣) الزمـــان

(٤) الحوار

وسأقف فيما يلى على بعض الصور القصصية مبينًـــا محاورهـــا ،ومن ذلك قول النابغة : (١)

---

(١) الجمهرة ص: (١٩١ :١٩٥ / ٣١ /٤٩) ، الركّاب : جمع ركـــب : مـــا يُعلق في السرج فيجعل الراكب فيه رجله ،ونت : ضعفت، تشذرت : نشطت ، الفتر : الضعف ، خطار: كثير الخطران برجليه على الناقة يحثها على المضيّ ، الذب : الدفع ،الريِّاد : التجوال ،إلى الأشباح نظَّار : كناية عن المرح ،مطرَد : مشرد حلائله : زوجاته ، المجرس : الخائف لســماعه جــرس الإنســان أي صوته ،جأب : صلب شديد ، الوسمي : أول المطر ، سراته : ظهــره لبانــه : صدر ، لهق :أبيض ، الحاصب: الريح التي = =تقذف بالحصا ، الإشعان : ما تناثر من ورق العشب بعد يبسه ،الأرطاة : واحدة الأرطي : شجر نوره كنــور الخلاف وثمره كالعناب وهي مرة تأكلها الإبل غضّة ،الوابل : المطر الغزيــر المنهمر الغصف : الواحد : أغصف ، اللين الناعم من= =الغصف في الأذن أي الاسترخاء وأراد كلاب الصيد ، الرَّوق : القرن ، وجرة : موضع بــين مكــة والبصرة بينها وبين مكة نحوأربعين ميلاً،ليس فيها منزل فهي مــربٌ للــوحش وقال محمد بن موسى : = وجرة عل جادة البصرة إلى مكة بإزاء الغمرالــذى على جادةالكوفة منها يحرم أكثر الحاج وهي سُرَّة نجد = =ستون ميلاً لا تخلــو من شجر ومرعى ومياه الوحش فيها كثير(معجم البلــدان ٥ / ٣٦٢) ، ذو

إذا الرِّكابُ وَنَتْ عَنْهَا رِكَائبُها،
تَشَذَّرَتْ بِبَعِيدِ الفَتْرِ خَطَّارِ
كَأَنَّما الرَّحْلُ مِنْهَا فَوْقَ ذِي جُدَدٍ،
ذَبِّ الرِّيادِ إلى الأشْباحِ نَظَّارِ
مُطَرَّدٌ أُفرِدَتْ عَنْهُ حَلاَئِلُهُ،
مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ أَوْ مِنْ وَحْشِ ذي قارِ
مُجَرَّسٌ، وَحَدٌ، جأْبٌ، أَطاعَ لَهُ
نَباتُ غَيْثٍ مِنَ الوَسْمِيِّ مِبْكَارِ
سَراتُهُ ما خَلاَ لَبَانَهُ لَهِقٌ،
وفي القَوَائِمِ مِثْلُ الوَشْمِ بِالقَارِ
باتتْ لَهُ لَيلَةٌ شَهْبَاءُ تَسْفَعُهُ
بِحَاصِبٍ ذَاتِ إشْعَانٍ وإمْطَارِ
وباتَ ضَيفاً لأُرطَاةٍ، وأَلْجَأَهُ،
مَعَ الظَّلاَمِ، إلَيها وابِلٌ سَارِ
حتى إذا ما انْجَلَتْ ظَلْماءُ لَيْلَتِهِ،
وأَسْفَرَ الصّبْحُ عَنْهُ أَيَّ إسْفَارِ
أَهْوَى لَهُ قَانِصٌ يَسْعَى بِأَكْلُبِهِ،
عَارِي الأشَاجِعِ، مِنْ قُنَّاصِ أَنْمارِ

قار : ماء لبنى بكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط وفيها حدثت وقعة ذي قار المشهورة في التاريخ (معجم البلدان ٤ / ٢٩٤) .

مُحَالِفُ الصَّيْدِ، تَبَّاعٌ، لَهُ لَحِمٌ،
مـــا إنْ عَلَيْهِ ثِيابٌ غَيـــْرُ أَطْـمَـــارِ
يَسْعَى بِغُضْفٍ بَرَاها فَهْيَ طَاوِيَةٌ،
طُـــولُ ارْتِحَالٍ بِهَا مِـــنْـــهُ وَتَسْيَـــارِ
حتى إذا الثَّورُ، بَعْدَ النَّفرِ، أَمْكَنَهُ،
أَشْلَى، وَأَرْسَـــلَ غُضْفاً كُـــلُّها ضَـــارِ
فَكَرَّ مَحْمِيَّةً مِـــنْ أَنْ يَفـــرَّ كَمَا
كَـــرَّ المحامي حِفاظاً، خَشْيَةَ العـــارِ
فَشَـــكَّ بالرَّوْق مِنهُ صَدْرَ أَوَّلِها،
شَـــكَّ المُشَاعِـــبِ أَعْشاراً بِأَعْشارِ
ثُمَّ أَثْنَنَى بَعْدُ لِلثَّاني، فَأَقْصَدَهُ
بِـــذَاتِ ثَـــغْـــرٍ، بَعِيدِ القَعْرِ، نَعَّارِ
وَأَثْبَتَ الثَّالِثَ الباقـــي بِنَـــافِـــذَةٍ،
مِـــنْ بَاسِـــلٍ، عـــالمٍ بالطَّعْنِ، كَرّارِ
وظَلَّ فـــي سَبْعَةٍ منها لَحِقْنَ بِهِ
يَـــكُـــرُّ بالرَّوق فيها كَـــرَّ إسْوارِ
حتّى إذا ما قَضَى مِنْها لُبـــانَتَهُ،
وَعَـــــادَ فِيْهَا بِإِقْـــبـــالٍ وإدْبـــارِ
انْقَضَّ كالكَـــوْكَبِ الدُّرِّيِّ مُنصَلِتاً
يَـــهْـــوي، ويَخلِطُ تَقْـــريباً بإحضـــارِ

فَذَاكَ شِبْهُ قَلُوصيَ، إذ أَضَرَّ بها

طُولُ السُّرَى والسُّرَى مِنْ بَعْدِ أسفارِ

فالنابغة يرسم لنا صورة قصصية في أسلوب تشبيهي يعقد بين الناقة وثور الوحش تطرق من خلاله إلى ثور الوحش راسمًا قصته متتابعًا في رسم أركانها المتعددة الأبعاد ، وجعل بطلها ثور الوحش ،وأضفي على الثور أبعادًا مختلفة ،فهو بطل قصته ،وهو الشخصية المحورية المحركة للحدث ،ويحاول الشاعر أن يصف الثور بشتى مقوماته الفنية ويظهر أولاً البعد الشَكْلِي الظاهري ؛ فيجعله ذا خطوط بيضاء وصفراء ،ويضيف إلى البعد الشكلي بُعْدًا نفسيًا فجعله (**مُطردا**) وحيدًا مشردًا كثير الطَّرد والتنقل بين الأماكن غير مستقر ،وقد أبعدت عنه حلائله ، وقد بنى (**أُفرِدت**) للمجهول ليبين الشاعر لنا أن هذا الإبعاد كان نتيجة لقوة قهرية غير معلومة فرقت بينهم ،ويعود ليوضح صفات هذا الثور ؛فيجعله مجرسًا له صوت فيه شحوب غليظ متنعم في نبات أول الغيث ،ويعود ليبين الجانب الشكلى للثور فظهره أبيض بلون الفطرة والشفافية والبراءة أمام قوائمه فقد صبغت بالقار والسواد .

وبجانب هذه الشخصية المحورية التي تُجَسِّدُ الحدث نجد شخصيات أخرى تشاركها في الحدث منها الصائد (**قانص**) وكلاب الصيد وقد جسد مقوماتهم المختلفة التي تنعكس مدلولاتها على القصة وتثرى أحداثها ، فالقانص لبيب من قبيلة ــ (**نمار**) المتمرسين بالصيد والمعروفين به ، وعظام ظاهر كفهم ظاهرة

وهذا محمود لدى الرجال ،فهم مجربون للصيد متحالفون، وملازمون له منذ زمن طويل ، فهم يكثرون من اتباع فرائسهم ،ويكثرون من أكل اللحم ليس عليهم ثياب سوى أخلاق بالية ،إن هذه الصفات التي ألصقها بالصائد تبين مدى مهارته وحرصه الشديد على الصيد مما يزيد من حجم الصراع بينه وبين الفريسة من ناحية وكلابه من ناحية أخرى.

أما الكلاب فهي عشرة كلاب أضاف لها مجموعة من الصفات تجعلها أكثر خبرة ، وأشد فتكًا ،فهي مسترخية الآذان ، وقد براها صاحبها وأنهكها من شدة السير ؛فأصبحت مبرية من شدة السير والجوع ، وهذا الجوع يجعلها حريصة على الصيد وإلا باتت تتلوى من نار الجوع المشتعلة في أجوافها .

ويأتي زمن القصة الذى دار فيه الحدث ويتولد فيه الصراع وكان هذا الزمان ممتدًا من الليل حتى الصباح ؛ففي الليل كانت محنة الثور الأولى وهي ريح شهباء بما فيها من أتربة وحصى صغار تضرب الوجه وأمطار؛ عندئذ لجأ الثور مضطرًا إلى أن يبيت تحت ظل شجرة الأرطاة ولما انجلى ظلام هذه الليلة الموحشة وجاء نور الصبح بضيائه المنير لم يكن الصبح منه بالأمثل بل حمل معاناة أخرى أشد هي معاناة الصائد وأكلبه .

ويأتي الحدث حاملاً الصراع المتولد بين الثور والصائد وأكلبه الغصف الطاوية ، ويتجسد مع حركتهم المتداخلة الصراع القائم بين الثور الذى لم يفر خشية العار ومغبته بل كر على

الكلاب محاولاً دفعهم بقوة بقرونه حفظا لماء الوجه واتقاء لعار الفرار ،وتمادى الشاعر في تصوير الصراع ؛ فطعن بقرنه صدر الكلب الأول فشقه شقًا كشق النجار لقطع الخشب ،وعاد للثاني بطعنة نافذة تحمل بين طياتها الدم ،ووجه طعنة ثالثة ماضية مكروهة قاتلة للثالث وظل يكرُّ حاملا على السبع الباقين من الكلاب ويلحق بهم بقرنه كرَّ الفارس حتى مال عليه ونفذ من خلال الإقبال والإدبار مراده مقبلاً مدبرًا عليهما وبعد ذلك هوى وسار وكأنه كوكب دري خالطا في سيره ما بين العدو والسرعة ،وفي النهاية يشبه هذا الثور المنتشي بالنصر والظفر من الموت الأحمر على يد الصائد وكلابه بناقته عندما يتعبها طول السير في الصحراء الموقدة.

ويرسم لنا أبو ذؤيب صورة حمار الوحش وأتانه الأربعة في قصة جسّدَ فيها شمولية الموت في قوله : (١)

---

(١) الجمهرة ص : (٥٣٨ :٥٤٣ /١٩ : ٣٩) السراة : الظهر، الجدائد : جمع جدود وهي الأتن قليلة اللبن وقال بعضهم : الخطوط على ظهر حمار الوحش ،الصخب : الشديد الصوت،الجميم : النبات الذى تمَ ولم يكتمل ،السمحج : الإتان الطويلة الظهر ،أزعلته : أنشطته ، الأمرع : أى مكان مخضب ،قرارة : المكان المستدير، القيعان : ما كان فيه ماء واه،أثجم :مكث وهطل ،جزرت : يبست ،الرزون : الأماكن الغليظة المرتفعة ،الحز : الحين ،احتثهن : ساقهن ، السواء :اسم مكان ،البثر : القليل ،مهيع :واسع ربابة :خرقة تغطى بها القداح ،اليسر :الذى يضرب بها ،الجزع : منعطف الوادى ،ينابع اسم مكان

وَالدّهْـرُ لا يُـبْـقي على حَـدَثَـانِهِ،
جَـوْنَ السَّرَاةِ له جَـدَائِـدُ أَرْبَعُ
صَـخْـبُ الشّـوَارِبِ، لا يَـزَالُ كَأَنّهُ
عَـبْـدٌ لآلِ أَبي رَبيـعَـةَ مُسـْبَعُ
أَكـَلَ الجَمِـيمَ، وَطَـاوَعَتْهُ سَمْـحَجٌ
مِـثْـلُ القَنَاةِ، وَأَزْعَلَتْهُ الأَمْـرُعُ
بِقَـرَارِ قِيعَانٍ سَـقَـاهَا صَـائِـفٌ،
واهٍ، فَأَثْـجَـمَ بُـرْهَـةً لاَ يُقْلِعُ
فَمَـكَـثْـنَ حِـيـناً يَعْتَلِجْنَ بِرَوْضِـهِ،
فَيَجِدُّ حِيناً في العِـلاَجِ وَيَشْـمَعُ
حتى إذا جَـزَرَتْ مِـيـَاهُ رُزُونِـهِ
وَبأَيّ حَـزٍّ مَـلاَوَةٍ يَتَـقَـطّـعُ
ذَكَـرَ الوُرُودَ بِـهَا، وَسَـاوَمَ أَمْـرَهُ
شُـوْماً، وَأَقْبَلَ حَيْـنُـهُ يَـتَتَبّعُ
فَاحْتَثّهُـنّ مِـنَ السَّـوَاءِ، وَمَـاؤُهُ
بَثْرٌ، وَعَـانَـدَهُ طَـرِيـقٌ مَهْيَعُ

،،الحرجات : الشجر الملتف ،مدوي : حجر الصيقل الذى يصقل به السـيوف ،شرف الحجاب : من مكان عالٍ ، المتلبب : الحازم ، الجشء : القوس الغليظة ،أجش : مصوتة ،امترست : أسرعت ،الجرشـع :الحمـار غلـيظ الجنبـين ، النحوص : التي لم تحمل ،العائط : العاقر ،المتصمع : الملتزق بالدم .

فَكَـــأَنّـــهُـــنّ رَبَـــابَـــةٌ، وكَـــــأَنّـــــهُ
يَسَرٌ يُفِيضُ عَلَى القِدَاحِ وَيَصْدَعُ
وكَـــأَنّها بالجِـــزْعِ جِـــزْعِ يَـــنَـــابِعٍ،
وأُولاتِ ذي الحَرَجَاتِ نَهبٌ مُجْمَعُ
وكَأَنّمَا هُـــوَ مِـــدْوَسٌ مُـــتَقَـــلِّـــبٌ
في الكَـــفّ، إلاّ أَنـــّهُ هُـــوَ أَضْلَعُ
فَوَرَدْنَ والعَيُّوقُ مَجْلِسَ رَابئ الضُّـــــ
ـــــرَبَـــاءِ فَـــوْقَ النّجْمِ لاَ يَتَتَلّعُ
فَشَـــرَعْـــنَ في حَجَراتِ عَـــذْبٍ بَارِدٍ
حَصِبِ البِطَاحِ تَسيخُ فِيهِ الأَكْـــرُعُ
فَشَـــرِبْـــنَ ثُمّ سَمِـــعْـــنَ حِسّاً دُونَهُ
شَرَفُ الحِجَابِ، وَرَيْبَ قَرْعٍ يُقْرَعُ
وَهَـــمَـــاهِماً مِـــنْ قَـــانِصٍ مُتَلَبِّبٍ،
في كَفّهِ جَـــشءٌ أَجَـــشُّ وأَقْـــطَعُ
فَنَـــكَـــرْنَهُ فَنَفَـــرْنَ، وَامْتَرَسَتْ بِهِ
عَـــوْجَـــاءُ هَـــادِيَةٌ وَهَادٍ جُـــــرْشُعُ
فَرَمَى، فَأَنْفَذَ مِـــنْ نَحُوصٍ عَـــائِطٍ،
سَهْماً، فَـــخَـــرّ وَرِيـــشُهُ مُتَصَعِّعُ
وَبَـــدَا لَـــهُ أَقْـــرَابُ هَذَا رَائِـــغـــاً
عَجِلاً، فَعَيّثَ في الكِنَانَةِ يُـــرْجِـــعُ

فَرَمَــى فَأَلْحَــقَ صَــاعِدِيّاً مِطْحَراً
بِالكَشْحِ، مُشْتَمِلاً عَلَيْهِ الأَضْــلُعُ
فَأَبَــدّهُــنّ حُــتُــوفَــهُنّ، فَظالِعٌ
بِذَمَائِهِ، أَوْ سَــاقِــطٌ مُتَــجَــعْجِعُ
يَعْثُرْنَ في عَــلَــق النَّجِيعِ كَــأَنّمَا
كُسِيَتْ بُرُودَ بَني يَــزِيــدَ الأَذْرُعُ

فرسم أبو ذؤيب لنا قصصًا جعل أبطالها من حيوانات ذات قوة ومهابة قادرة على ذود الخطر عن أنفسها من خــلال قصــة مأساوية تصاعد في الصراع الدرامي ،وختمت هنا على عكــس النابغة بختام مأساوي راح ضحيته ثور الوحش أو حمار الوحش ، فبدأ أبو ذؤيب بقصة ثور الوحش ،وألقــى ظلالــه علــى الناحيــة البصرية الشكلية ،وهي أول ما تقع عليه عين الرائي ،فهو أبــيض الظهر مستوحيًّا من صفات البياض النورانية ،وما يحملها من سمو وبراءة وفطرة خالية من الدنس ،وهذا يضفي علــى الثــور هــذه الظلال بجانب أنه له جدائد أربع ،وهي أتنه ،وكونه له أتن أربــع أضفي عليه ظلال القوة ،والمهابة تلك القوة التي تجعله قادرًا علــى أن يعاشرهن ،ويسيطر على الرغم من أهوائهن المتضــاربة علــى أمورهن ،ويقودهن في رحلته المحفوفة بالمخاطر من كــل مكــان .،وزاد بُعْدَ المهابة على بطل القصة من خلال البعــد الشــكلي ؛ فجعله صخب الشوارب ،فعندما ينهق يتحرك شاربه ،وكأنــه مــن مهابته عبد لآل أبى ربيعة ،وأضاف لذلك كونه مهملاً مع الســباع

،وقد ازداد نشاطًا وقوة من أكله النبت الطويل ونشطته وزادت من قوته الأماكن المخصبة التي كان يرعاها .

وبجانب هذه الشخوص الأساسية أتى الصائد ليشكل شخصية مؤثرة في الحدث ،وقد نعته الشاعر بالحزم ،وأعطاه ما يجعله مهيبًا ،وهي سهم مصوتة ،ثم أتى بعد ذلك الحدث متمثلاً في تبادل شُرْبِ الماء الصافي وتمتعهم بعد ما طابت لهم الدنيا ؛فظلوا يرتعون ، ويلعبون ،ويَعَضُّ بعضهن بعضًا إلى أن تغير الحال ،وبدأت المحنة تنسج خيوطها ،وتلفها بإحكام على أعناقهم ؛ عندئذٍ تبدلت الحالة من سيء إلى أسوء ،وبدأت المياه تَجِفُّ تدريجيا وتتلاشى ؛عندئذ ذكَروا ما كان بها من الماء ،ووروده لها ،وظهر أمام أعينهن هلاكهن ، وصورة الموت القابع لهم المكشر عن أنيابه الحادة ،وبدأت المعاناة تتجلى واضحة أمام عينيه فلم يملك إلا أن يرحل ؛ فساقهن من السواء ــ وهو الموضع الذى كانت فيه الحياة المنعمة أولاً ــ منطلقًا بهن إلى طريق غير محدد الملامح متنقلاً من منعطف الوادي إلى ينابع وسط أشجار ملتفة .

وأتى الزمان ليشكل المحور الثالث ويتمثل في قوله : **(فَوَرَدْنَ والعَيُّوقُ)**،فقد ورد بهن في شدة السحر وهو وقت تميل فيه الثريا للغروب ،والعيوق يكون خلفها ؛ وقد كان الماء قليلاً ،وكان الطريق واسعًا مستقيمًا لا ملامح له ولا آخر ؛ فظلوا يتيهون في الأرض بحثًا عن مكان آمن يتوفر فيه الماء ،فلما وجد ه الثور ؛ ساقهن إليه عندئذ أحسوا بأن الدنيا قد أدرات لهم مرة أخرى وجهها

البشوش ؛ فشرعن في حسوات الماء الباردة والسعادة تتأرجح على ملامحهم وحركاتهم لكن الدهر لم يدم لهن على حال ؛ فسمعن حسًّا من أعلى ،وأصوات غير مفهومة من قانص عازم على صيد فريسته ،وازدادت الأمور تعقيدًا ،وارتفع الصراع إلى أقصى درجاته معبرًا عنه الشاعر من خلال (**هَمَاهِماً ـ نَكَرْنَهُ ـ نَفَرْنَ ـ امْتَرَسَتْ بِهِ ـ رَمَى ـ فَأَلْحَقَ صَاعِدِيّا**) ،فالصوت كان الباعث على تنبه الحُمر لأمر خطير ؛ فأنكرن الصوت ،فأسرعت فرمى سهمه القاتل ،فنفذ وأصاب حمرًا لم تحمل ،وتشرد شملهن ما بين ساقط على الأرض غارق في دمائه ،و هارب والدماء تغرقه ويجرُّ أذيال الهزيمة ومرارة الثكل والتيه ،وآلام الأوجاع .

وفي المقابل كانت النصرة للصائد الذى تمكن بعد طول صراع من أن يلحق بهن الضرر ؛ فوزعت سهامه المتتابعة عليهن حتوفهن ما بين عارج بدمائه ،وساقط على الأرض والدم على أذرعهن ،وكأنه في حمرته برود بنى يزيد ،هكذا جَسَّدَ الشَّاعِرُ مِحْنَةَ الثور التي عبر من خلالها عن شمولية الموت .

وبجانب قصص الحيوانات تأتى القصة الغزلية التي يشوبها المغامرة ويخالطها عبق العبث وقد ورد ذلك كثيرًا لدى امرئ القيس في أيامه كيوم دارة جلجل ويوم خدر عنيزة وفاطمة

،وسأقف عند إحدى هذه اللوحات القصصية وذلك في قوله : (١)

وبَيضَةِ خِــدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها،
تَمَتَّعْتُ مِن لَهوٍ بها، غَيرَ مُعجَلِ
تَجاوَزْتُ أَحْرَاساً إلَيها ومَعشَراً
عليَّ حِرَاصاً لو يُسِرُّونَ مَقتَلي
إذا ما الثُّرَيّا في السَّماءِ تَعَرَّضَتْ
تَعَرُّضَ أَثناءِ الوِشــاحِ المُفصَّلِ
فَجِئْتُ، وقَــدْ نَضَتْ لنَوْمٍ ثِيابَهَا
لَدَى السِّترِ إلاّ لِبْــسَةَ المُتَفَضِّلِ
فَقالَتْ: يَمينَ اللَّهِ مــا لَكَ حِيْلَةٌ
وما إنْ أَرَى عَنكَ الغَوَايةَ تَنْجَلي
خَرَجْتُ بها أَمشي تَجُرُّ وَرَاءَنا
على أَثَرَينا ذَيْــلَ مِــرْطٍ مُرَحَّلِ
فلَمَّا أَجَزْنا ساحَةَ الحَيِّ وانتَحَتْ
بنا بَطْنُ خَبْتٍ ذي حِقافٍ عقَنْقَلِ
هَصَرْتُ بفَودَيْ رأْسِها فَتَمايَلَتْ
عليَّ هَضِيْمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلخَلِ
مُهَفْهَفَةٌ بَيضاءُ، غَيرُ مُفَاضَةٍ

---

(١) الجمهرة ص : (١٢٣ :١٢٧ /٣١ : ٤٠) .

تَرائِبُها مَصْقُولَةٌ كالسَّجَنْجَلِ

كَبِكْرِ المُقاناةِ البَياضِ بِصُفْرَةٍ،

غَذاها نَميرُ المَاءِ غَيرُ المُحَلَّلِ

تَصُدّ وتُبدي عَنْ أَسِيْلٍ وَتَتّقي

بناظِرَةٍ منْ وَحشِ وَجــرَةَ مُطْفِلِ

فالقصة مكتملة الأركان بدت فيها أولاً الشخوص وهي امرأة بيضاء منعمة لا تبرح منزلها ، بجانب الشاعر والحُرَّاس يحيطونها بسياج منيع ، أما الزمان : فكان عندما تتعرض الثريا ،ولا يكون تعرضها إلا في آخر الليل ،والمكان أرض غليظة منعرجة منحنية بين الرمال ،ودار الحوار متصاعدًا بين الشاعر والمرأة متمثلا في (**قالَتْ**) مفجرًا الحدث المتمثل في (**جِئْتُ ــــ فَقالَتْ ــ خَرَجْتُ ــ تَجُرُّ ــ انتَحَتْ ــ تَمايَلَتْ**) ليدفع من خلالها الحدث إلى ذروته ،ناعتًا هذه المرأة بما من شأنه أن يلصق بها عناصر الفتنة والإثارة .

وتأتى القصة لتمثل جانبًا آخر ،وذلك في معمعات المعارك عندئذ يقدم لنا عنترة قصصًا بطوليةً لصراعاته وجولاته بين معمعاتها ،وذلك في قوله : (١)

هَلاّ سَألْتِ الخَيْلَ يا ابنَةَ مالِكٍ

إنْ كُنْتِ جاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمي

---

(١)الجمهرة ص : (٣٦٤ :٣٦٩ /٦١ : ٨١) .

لا تَسْأليني واسْــأَلــي في صُحْبَتي
يَمْلأْ يَــدَيْــكِ تَعَفُّــفي وتكرّمي
إذْ لا أزالُ على رِحَــالَــةِ ســابِحٍ،
نَــهــدٍ، تعــاوَرُهُ الكُماةُ مُكَلَّمِ
طَــوراً يُــجَــرَّدُ للطَعانِ وتــارَةً
يَأْوي إلى حَــصِدِ القِسيّ عَرَمْرَمِ
يُخْبِرْكِ مَــنْ شَــهِــدَ الوَقيعَةَ أنّني
أَغشَى الوَغَى، وأَعِفُّ عندَ المَغنَمِ
ومُــدَجَّجٍ كَــرِهَ الكُماةُ نِــزالَهُ،
لا مُمعِنٍ، هَــرَباً ولا مُــسْــتَسْلِمِ
جَــادَتْ يَــدايَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ
بِمُثَقَّفٍ صَــدْقِ الكُــعُوبِ مُقَوَّمِ
بِرَحِيبَةِ الفَرغَينِ يَهْدي جَــرْسُها
باللّيلِ مُــعــتَسَّ الذّئابِ الضُّرَّمِ
فشَكَكْتُ بالرّمْــحِ الأصَــمّ ثِيابَهُ،
لَيْسَ الكَريمُ على القَنَا بِمُحَرَّمِ
فَتَرَكْتُهُ جَــزَرَ السِّباعِ يَنُــشْنَهُ،
مــــــــا بَيْنَ قُلّةِ رَأْسِــهِ والمِــعْصَمِ
ومِــشَــكٍّ سابِغَةٍ هَتَكْتُ فُرُوجَها
بالسّيْفِ عن حامي الحَقِيقَةِ مُعْلِمِ

رَبِــذٍ يَــداهُ بالقِــداحِ، إذا شَتَا،
هَــتّــاكِ غَــايَاتِ التِّجَارِ مُــــــــلَوَّمِ

لَمّا رَآني قَــدْ نَــزَلْتُ أُرِيــدُهُ،
أَبــدَى نَواجِـــذَهُ لِغَــيْرِ تَــبَسّمِ

فَطَعَنْتُهُ بالرّمْــحِ، ثمّ عَــلَــوْتُهُ
بِمُهَــنَّدٍ صَــافي الحــــَديدةِ، مِخذَمِ

عَهدي بِهِ مَــدَّ النّهارِ، كَأنّما
خُــضِبَ البَنانُ ورأسُهُ بالعِظلِمِ

بَــطَلٍ كأنّ ثِيَابَهُ في سَرْحَةٍ،
يُحــذَى نِعالَ السِّبتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ

ولَقَد ذَكَرْتُكِ والرّمَــاحُ نَواهِلٌ،
مِنّي وبِيضُ الهندِ تَقْطُرُ من دَمي

فَوَدِدْتُ تَقبيلَ السّيُــوفِ لأنّها
لَمَعَتْ كَبَــارِقِ ثَــغْرِكِ المُتَبَسِّمِ

يا شاةَ ما قَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ لهُ
حَرُمَتْ عَليّ، ولَيْتَها لــم تَحــــْرُمِ

فَبَعَثْتُ جَاريتي فقُلْتُ لها اذهبي
فَتحسّسي أَخبارَها ليَ واعلَمي

قالَتْ: رَأَيْتُ مِنَ الأعادي غِرّةً،
والشّاةُ مُمكِنَةٌ لِمَــنْ هُوَ مُرْتَمِ

وكَأنّما التَفَتَتْ بِجيدِ جَــدَايَــةٍ،

رَشَأٍ مِــنَ الغــــــــزْلاَنِ، حُــرٍّ أَرْثَمِ

فهو يضمن أبياته قصصًا محورها الجوهري الحوار الذى هو مــن أهم مقومات بناء القصة ،فبدأ باستدعاء محبوبته ومحاورتهــا عــن نفسه طالبًا منها أن تسأل عنه ،وعن بطولاته لكى تقرَّ عيناها بهــا منتهزًا الفرصة ليسرد على أسماعنا قصــة بطوليــة اعتنــى فيهــا الشاعر بالشخوص ، وهم : (الخصم "رجل متغطي بالسلاح " ، والكماة ،والشاعر ، المحبوبة "السائلة ") عناية خاصة ،وقد حرص الشاعر على إضفاء صفات بطولية على خصمه (طرف الصراع) ،فجعله مدجج السلاح يكره الكماة المستترون بالحديد نزاله ،لا يسلم نفسه ولا يهرب ،ويقاتل باستبسال حتى الظفر لكنه على الرغم مــن هذه القوة التي نعت بها خصمه ،فإنه لم يتركــه كثيــرًا ،وضــربه ضربًا شديدًا ،وتركه جزرًا للسباع وطعامًا سائغًا لهم .

وتطرق الشاعر إلى قصة أخرى في الســياق نفســه ،فلم يكتف الشاعر بقتل هذا الرجل الذى كَرِه الكماة نزالــه فحســب ،بل اتجه إلى آخر مِمّن يشار إليهم في الحرب حاملاً الراية ،وحامٍ للعشيرة ،وكان مصيره كسابقه برغم كل ما أضفاه عليه الشاعر من صفات البطولة ؛ فجعله بطلاً شجاعًا يحتذى حذاء الملــوك ، قويًّــا ليس بتوأم ،ولكنه لما رأى الشاعر أبدى عن نواجذه خوفًــا ورعبًــا ،فلما ارتفع النهار كان مخضبا بدمائه ،وبعد ذلك يعود الشاعر إلــى محبوبته مرة أخرى جاذبًا طرف الحديث إليها مفيدًا تذكره لها على

الرغم من جلل الحدث ، وتوالى الكربات فقال :(**ذكرتك**) ،وهذه الذكرى كانت والرماح تنهال عليه كالأمطار ، والسيوف الهندية البيضاء تناوشه وتقطر من دمائه، ولكنه برغم شدة الموقف مازالت تتعاور ذكراها فكره، وتظهر صورتها أمام عينيه ،فناداها ناعتا إياها بـ (شاة) ليلتمس بهذا النعت فيها البراءة مفيدًا تحريمهم لها عليه الذى يقتضى بعدها ،ويتمنى لو كانت حلالاً له ،فهو أهل لها ،ومحاولاً في الوقت نفسه استجلاب وسيلة أخرى يحاول من خلالها أن يشفي شوقه لمحبوبته محاولاً على قدر استطاعته أن يلم بأخبارها ،فبدأ بقصة أخرى برزت فيها الشخوص ،وأبهم فيها عن الزمان ،وتلاشت ملامح المكان ،وتمثلت الشخوص في الشاعر ، وجاريته المتحسسة للخبر ،ومحبوبته ،وقد دار الحوار بين هذه الشخصيات متمثلاً في (**بَعَثْتُ جَارِيتي ـ قُلْتُ لها ـ قَالَتْ**) ليولد بتناميه التشويق الذى بلغ ذروته بإجابة الجارية التي أشفت كثيرًا من نار حبه المتأجج بقولها : إن الأعداء غافلون وزيارة المحبوبة ممكنة لطالبها .

هكذا جَسّد لنا الشاعر مواقف بطولية من خلال هذه القصص التي برزت فيها الشخوص ،وتجلى الزمان على استحياء في المشهد الثاني ،وبقى المكان مبهمًا والحوار معتمدًا على السيف والطعن ،فهو حوار فعلي جسد الصراع الدموي بين الشخصيات ،وكان النصر فيها لراوي القصة .

وأتى الشماخ ليرسم لنا صورة قصصية مطولة اعتمد فيها على المفارقة التصويرية محاولاً أن يرسمها من خلال قصتين متداخلتين ،فوضع قصة تراثية ضمنها قصة القُوّاس مع قوسه وتعاطفه معها كمًا وكيفاً من خلال الاسترجاع الفني (الفلاش باك) كما في قوله : (١)

وَعَوجَاءَ مِجْذَامٍ، وَأَمْرِ صَرِيمةٍ،
تَرَكْتُ بِهَا الشَّكَّ الذي هُوَ عَاجِزُ
كَأَنّ قَتُودي فَوْقَ جَأْبٍ مُطرَّدٍ؛
مِنَ الحَقْبِ، لاَحَتْه الجِدادُ الغَوَارِزُ
طَوَى ظَمْأَهَا في بَيْضَةِ الصّيْفِ،بَعْدَمَا
جَرَى في عَنَانِ الشِّعْرَيَينِ الأماعِزُ
وَظَلّتْ بِأَعْرَافٍ كَأَنّ عُيُونَها
إلى الشَمْسِ، هل تدْنو رَكيَّ النّواكِزِ
لَهُنّ صَلِيلٌ يَنْتَظِرْنَ قَضَاءَهُ،
بِضَاحِي عَذاةٍ أَمْرُهُ، فهو ضامِزُ
فَلَمّا رأَيْنَ الوِرْدَ مِنْه صَرِيمةً،
قَصَيْنَ، وَلاَقَاهُنّ خَلٌّ مُحَاوَزُ
فَلَمّا رأَى الإظْلاَمَ بَادَرَهَا بِهِ،
كَمَا بَادَرَ الخَصْمُ اللَّجُوجُ المُحَافِزُ

---

(١) الجمهرة ص : (٦٦٢ :٦٧٤ /٤ : ٥٦).

وَيَمّمَها في بَطْنِ غَــابٍ وَحَــائِرٍ،
وَمِــنْ دُونِهَا مِنْ رَحْرَحَانَ المفاوزُ
عَلَيْهَا الدُّجَــى المُسْتَنْشَآتُ كَأَنّها
هَــوَادِجُ مَشْــدُودٌ عَلَيْهَا الجــزائز
تُعَادِي إذا اسْتَذْكَى عَلَيْهَا، وَتَتَّقي
كَما تَتَّقي الفَحْــلَ المخاضُ الجَوَامِزُ
فَمَرَّ بِهَا فَــوْقَ الجُبَيْلِ، فَجَاوَزَتْ
عِشاءً، وَمَا كَانَــتْ بِشَــرْجٍ تُجَاوزُ
وَهَمّتْ بِــوِرْدِ القِنَّتَيْنِ، فَصَــدَّهَا
مَضِيقُ الكُــرَاعِ، وَالقِنَانُ اللّواهِزُ
وَصَدَّتْ صُدُوداً عَنْ شَرِيعةِ عَثْلَبٍ،
وَلابْنَيْ عِيــاذٍ في الصّــدُورِ حَــزائِزُ
وَلَوْ ثَقِفَاهَا ضَــرَّجَتْ بِدِمَــائِها،
كَمَا جُلِّلتْ، نِــضْوَ القِــرَامِ، الرَّجائِزُ
وَحَلأَّهَا عَــن ذي الأَراكَةِ عَــامِرٌ،
أَخُو الحُضْرِ يَرْمي حَيْثُ تُكْوَى النَّواحِزُ
مُطِلاً بِزُرْقٍ مَــا يُدَأْوَى رَمِــيُّهَا،
وَصَــفْرَاءَ مِــنْ نَبْعٍ عَلَيْهَا الجــلائِزُ
تَخَيَّرَهَا القَوَّاسُ مِنْ فَرْعِ ضَالَةٍ،
لَهَا شَــذَبٌ مِــنْ دُونِــهَا، وَحَــــزائِزُ

نَمَتْ في مَكَانٍ كَنَّها، فاستَوَتْ بِهِ،
وَمَــا دُونَهَا مِــنْ غِيلِهَا مُتَلاَحِـــزُ
فَمَا زَالَ يَنْحُو كلَّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ،
وَيُنْغِلُ حَتّى نَــالَــها، وهــو بَــــارِزُ
فَأَنْحى عَلَيْهَا ذَاتَ حَــدٍّ غُرَابُها،
عَــدُوٌّ لأَوْسَــاطِ العِضاهِ مُــشَــارِزُ
فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ في يَدَيْهِ رأَى غَمًى
أَحَــاطَ بِهِ، وَازْوَرَّ عَــمَّنْ يُــحَاوِزُ
فَأَمْسَكَهَا عَامَيْنِ يَطلُب دَرْأَها،
وَيَنْظُرُ مِنْهَا مــا الّذِي هُــوَ غَامِزُ
أَقَامَ الثِّقَافُ وَالطّرِيــدَةُ مَتْــنَهَا،
كَمَا أَخْرَجَتْ ضِغنَ الشَّمُوسِ المَهَامِزُ
فَوافي بِهَا أَهْلَ المَوَاسِمِ، فَانْبَرَى
لها بَيِّعٌ يُــغلي بِــهَا السَّــوْمَ رَائِــزُ
فَقَالَ لَــه : هَلْ تَشْتَرِيها، فَإِنَّها
تُــبــاعُ، إذا بِيعَ التِّــلادُ الحَــرائِــزُ
فَقَال لَهُ : بَــايِعْ أَخَــاكَ، وَلا يَكُنْ
لَكَ اليَوْمَ، عَنْ بَيْعٍ مِن الربح، لاَهِزُ
فَقَال : إزَارٌ شَــرْعَــبِيٌّ، وَأَرْبَــعٌ
مِــنَ السِّيَراءِ، أَوْ أَواقٍ نَــواجِــزُ

ثَمَانٍ مِــنَ الكُورِيّ حُــمْرٌ، كَأَنَّها
مِنَ التِّبر ما أذكى عَنِ النَّارِ خَابِزُ
وَبُرْدَانِ مِنْ خَالٍ وَتِسْعُونَ دِرْهَماً،
على ذَاكَ مَقْرُوظٌ مِنَ الجِلْدِ مَاعِزُ
فَظَلّ يُنَاجي نَفْــسَهُ وَأَمِــيــرَها،
أَيَأْبَى الذي يُعْطَى بها، أو يُــجَاوِزُ
فَلَمّا شَرَاهَا فَاضَتِ العَيْنُ عَــبْــرَةً،
وَفي الصَّدْرِ حُزَّازٌ مِنَ الوَجْدِ حَامِزُ
فَذَاقَ، فَأَعْطَتْهُ مِنَ اللِّينِ جَــانــباً
كَفي وَلَهاً أن يُغْرِقَ السَّهْمَ حَاجِزُ
إِذَا أَنْبَضَ الرّامُونَ فِيهَا تَــرَنّــمَتْ
تَرَنُّــمَ ثَكْلَى أَوْجَعَتْــهَا الجَنَائِــزُ
هَتُوفٌ، إذا ما خَالَطَ الظبيَ سَهْمُهَا،
وَإِنْ رِيــعَ مِنْهَا أَسْلَــمَتْهُ النّوافِزُ
كَأَنَّ عَلَيْهَا زَعْــفَــراناً تُمــيــرُهُ
خَــوَازِنُ عَطَّارٍ يَــمَانٍ، كَــــوَانِز
إذا سَقَطَ الأَنْدَاءُ صِينَتْ وَأُشْعِرَتْ
حَبيراً وَلَمْ تُدْرَجْ عَلَيْهَا المَعَاوِزُ
فَلَمّا رأَيْنَ الماءَ قَدْ حَالَ دُونَهُ
ذُعافٌ على جَنْبِ الشَرِيعَةِ كَارِزُ

رَكِبْنَ الذُّنَابَى، فَاتَّبَعْنَ بِهِ الهَوَى،
كَمَا تَابَعَتْ شَـدَّ العِنَانِ الخَوَارِزُ
فَلَمّا دَعَـاهَا مِنْ أَبَاطِحِ وَاسِطٍ
دَوَائِرُ لم تَضْرَبْ عَلَيْهَا الجَرَامِزُ
حَذَاهَا مِنَ الصَّيْدَاءِ نَعْلاً طِرَاقُها
حَوَامِي الكُرَاعِ المُؤَيداتُ العشاوز
تَوَجّسْنَ،واسْتَيْقَنَّ أَنَّ لَيْسَ حَاضِرٌ
على الماءِ إلاَّ المُقْعَدَاتُ القَوَافِز
يَلِهْنَ بِمِدْرَانٍ مِنَ اللَّيْلِ مَوْهِناً،
عَلَى عَجَـلٍ وللْفَرِيصِ هَزَاهِزُ
وَرَوّحَهَا في المُورِ مُورِ حَمَامَةٍ،
على كلِّ إجْرِيَّائِها، وَهُـوَ آبِزُ
يُكَلِّفُهَا أَقْصَى مَدَاهُ، إذا الْتَوَى
بِهَا الوِرْدُ وَاعْوَجَّتْ عليها المَفَاوِزُ
حَدَاهَا بِرَجْعٍ مِنْ نَهيقٍ، كَأَنَّهُ
لَمَّا رَدَّ لحيَيه مِنَ الجَوْفِ رَاجِزُ
مُحَامٍ على رَوْعَاتِها، لا يَرُوعُها،
خِمالٌ، ولا ساعي الرُّماةِ المُنَاهِز
وَقَابَلَها مِنْ بَطْنِ ذُروةَ مُصْعِداً،
على طُـرُقٍ كَأَنّـَهُنّ نَـحَـائِـزُ

فَأَصْبَحَ فَوْقَ الحِقْفِ حِقْفِ تُبالةٍ،

له مَرْكَضٌ في مُسْتَوَى الأرضِ بَارِزُ

وَأَضْحَتْ تُغَالي بِالسِتَارِ، كَأَنَّها

رِمَــاحٌ نَحَــــاهَا وُجْهَةَ الرِّيــحِ رَاكِزُ

فهذه الأبيات تتضمن أولاً قصة نمطية تتمثل شخوصها في حمار وحش غليظ مطرد أسبغ الشاعر مجموعة من الصفات الشكلية عليه ؛فجعل في بطنه بياض غبرته أتانه وشاركته أتن غليظة ثمينة لا لبن فيها ، وشاركهما الصائد ، وقد عمق الشاعر أوصاف هذه الحمر الوحشية التي أتعبها العطش في شدة الصيف ،مبينا زمان القصة المتمثل في فصل الضيف وزاده تحديدًا ببروز (الشعريين) ،وهما : نجمان والعبور ،والشعرى الغميصاء وطلوعها يكون في شدة الحر .

أما المكان فهو مطلق نعته بالأماعز : وهي الأرض الغليظة ،وبدأت رحلة هذه الحمر في البحث عن الماء ،وصور الشاعر مدى استفحال العطش بهن ،فظللوا يترقبون غياب الشمس ،ويتمنون أن يطفئ حرارة أجوافهم قليلاً من الماء ،وظهرت أمام أعينهن آباره ، ويجللوا في أسماعهم صوت الماء في أجوافهن ،فأتى الظلام حاملاً بين أستاره السوداء آمال الارتواء حيث لا رقيب ولا أنيس ما بين رحرحان ؛ فوجدوا الصائد قد أحكم حباله حول حياض الماء عليه قترة الصائد ،وكأنها مراكب النساء عندئذٍ نجا الثور بحمره ،وبدأت رحلة المعاناة ، فمرّ بهن من فوق الجبل

،والليل قد أحكم فتله ،ورده عن مورد الماء (ثعلب) القانصان فلو صادفاها لكان مصيرها القتل ،وأبعدها عن ذى الأراكة (عامر) ،وهو قناص من الحضر بن محارب ،وفي هذا الوقت الذى أوجد الشاعر فيه هذه الحمر تائهة شاردة يغلفها العطش والخوف ،ويحيطها الموت من كل مكان يستطرد الشاعر في قصة أخرى بطلها قوَّاس، وقوس ،ومشترٍ يغلى في شرائها ،ويحاول جاهدًا أن يدفع فيها أي سعر مولدًا من خلال هذا المشهد قصة مكتملة الأركان أبطالها شخصيتان أساسيتان وهما : القوس والقواس ،وشخصية ثانوية وهي المشتري ،ويهتم الشماخ بشخصية القوس أكثر من صاحبها ، فبدأ في رحلة العثور عليها، فقد كانت غصنًا ينبض بالحياة والحركة وسط مجموعة أشجار كثيفة ولكن عين القواس الخبيرة لمحته وسط أغصان ملتفة ،وأدركت بخبرتها العميقة قيمته،فخاض الصعاب وشق غمراتها للتوصل إليها ؛ ليتمكن من الظفر به ،وبدأ في تهذيبه ،حتى صار خلقًا جديدًا ،وبدأ القواس الإعداد بمرحلة التجفيف التي استغرقت زمنًا طويلاً قدره بعامين ،وهذبه وقوّمه حتى استوى قوسًا ؛فعطره ،وكساه حريرًا ،وحمله معه في المواسم والأسواق .

وتبدأ المساومة على شرائها ،وبدأ البائع في الوقت ذاته إحساس المشتري بقيمة القوس بوصفه ليس قوسًا عاديا وإنما هو جزءٌ من ذاته ،وبدأ الصراع بإحساس المشتري بأهمية القوس بعد ما جربها ؛ فوجدها لينة ، كالعروس في حلى ليلة عرسها ،وبدأت

المفاوضة لشرائها مقابل عدة برود من الشرعبي ،والشيزي وتسعين درهمًا ، وجلد ماعز مدبوغ بالقرظ ؛عندئذٍ خلق الشاعر صراعًا بلغ ذروته داخل القوَّاس، فقد أحسَّ بأهميته فلم يصبح لديه مجرد قوس عادي وإنما أصبح جزءًا منه ،ولكنه في حيرة بين فقره المدقع وحالته البائسة ،وهذا العرض المغري الذى سينتشله من فوهة الفقر التي تظله بظلالها ،ولكنه ما لبث أن أعطاها للمشترى مفارقًا معشوقته ،ولكن ما لبث أن عصفت بأركانه ريح الندم وغلفته من كل جانب ؛ فبكى شوقًا إليها وحزنًا على فراقها ، ثم يعود الشاعر مسترجعًا فنيا إلى قصة الثور وحمر الوحش متتبعًا من خلالهم محاولتهم الحثيثة للنجاة من صائد ،والانتقال من مكان لآخر ؛ فأخذتهم ريح الضياع ،وأنهكتهم الأرض الغليظة متنقلين من موضع لآخر طلبًا للظفر والنجاة .